باي باي جيلو

طه عدنان ـ المغرب

اللوحة الأولى

تُضاء خشبة المسرح تدريجياً على شاب في عقده الثالث يقتعد كرسيا ويتحرّك بشكل يوحي بأنه بين شرطيين.. ينبعث صوت المضيفة تعطي إرشادات السلامة بغَنْج اعتيادي. يتحرّك الشاب في مقعده مرتجفاً.. يتواصل صوت المضيفةً.. صوت محرّك الطائرة.. الشاب يقرأ متوتراً دعاء السفر

سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ.

يتحرّك بما يوحي بأن الشرطيين المتوجّسين من هذه التمتمات يُحكِمان قبضتهما على ذراعيه. يتلفّت في اتجاه الرّكاب الوهميين شادّاً ذراعيه، فيما تنبعث أصواتٌ وهمهماتٌ تعبّر عن الهلع بمختلف اللغات. يعتدل في مجلسه متوجّهاً بالخطاب إلى الجمهور

ما هَمَّ أن يُرحّلوني. أنا فقط خائفٌ من الطائرة. وأنا صغير، كنتُ أحلم أن أصير طيّاراً.

«تطيرُ مع الطيور. سر، الله يطيّرك» تصرخ أمي منزعجةً من شغبي. أمّا والدي، فصفعاته السّديدة تجعلني أطير من مكاني بلا أجنحة.

يغنّي محرّكا ذراعيه فيما يشبه التحليق

«طيري يا طيّارة طيري يا ورق وخيطان...»

طالما حلمتُ بالطيران. في الابتدائي، كنتُ أحبّ المشاركة في الأنشطة المدرسية.

يغني

«يا طيرة طيري يا حمامة...»

كان المعلم يطلب منا أن نُحلّق. أن نُرافق الأداء بالتعبير الجسدي عن الطيران. أنا الوحيد الذي يطلب مني أن أهبط من حين لآخر. سرعان ما أنسى الأغنية لينبُتَ لي جناحان أنخرط في التحليق بهما بعيداً عن سرب التلاميذ.

لديّ ذاكرةُ عصفور. تطير المعلومات من رأسي بأسرع مما تحطّ. القصيدة الوحيدة التي عَلِقت بذاكرتي كانت في وصف الطائرة.

يقلّد طريقة التلاميذ في استظهار المحفوظات

مركبٌ لو سلَفَ الدّهرُ بـه / كان إحدى معجزات القُدمـــاءْ

نصفهُ طيرٌ، ونصفٌ بشـرٌ / يالَهـا إحدى أعاجيب الفضاءْ

ظلام

اللوحة الثانية

يقتعِدُ الشاب كرسياً ويداه مقيّدتين في مشهد استنطاق

اسمي؟

جيلو.

اسم جيلو غيرُ مسجّلٍ في محاضركم؟!

تتغيّر الإضاءة ليقف جيلو منتصباً وسط الخشبة مخاطباً الجمهور

الجييلاليبي.. هكذا قرّر والدي سي بوعلام تسميتي إكراماً لخاطر صديقه الجيلالي العطّار. أوّل من دخل عليه مُهَنّئاً بولادتي. سمعتُم قطعاً بالحديث الذي يدعو العباد إلى تسمية أبنائهم بأسماء الأنبياء، لكن هل دعا أحدٌ إلى تسميتهم بأسماء الأصدقاء؟! أبداً.. هذه بدعةٌ ضالّةٌ مُضِلّةٌ ابتدعها والدي ليجعلني أولدُ هكذا بِاسْمٍ هرِم.

جدتي كانت تدلّعني بتصغير اسمي لتنادي عليّ: الجويليلي.. يااويلي.. للإشارة نحن شعبٌ له ولعٌ

عجيبٌ بتصغير الأسماء.. كأننا نستكثر على الخلق أسماءهم! أما عمّي المعطي، فكان يناديني: جلّول.

وأنا أتفرّج على المسلسلات في التلفزيون كنتُ أكره اسم الجيلالي وكلّ مشتقاته.. فالجيلالي إمّا قرويٌّ أهبل أو حارسُ عمارةٍ معتوه. ولا مرّة صادفتُه مهندساً أو طبيباً. وعندما يكون لك اسمٌ عتيق كاسمي تكتشف سريعاً أن رفاقك الصغار أوغادٌ كبار لا يُفَوِّتون أدنى فرصةٍ للتّنكيل بك، بل ويجعلونك تلعن اليوم الذي جئتَ فيه إلى الحياة تحمل مثل هذا الاسم المُضحك.

تنفرج أسارير وجهه

جيلو..

يصيح على طريقة الأطفال وهم ينادون أترابهم

جيلو.. جييلوو.. جيييلووو

هكذا بدأ الأتراب ينادونني وأنا صغير. كانوا يطرقون باب بيتنا ليسألوا والدتي: «خالتي، جيلو موجود؟»

يقلّد والدته

«هنا لا وجود لجيلو.. الجيلالي مشغول» هكذا تجيبهم وهي تصفق الباب.

رغم انزعاج أهلي من هذا الاسم الطارئ، كنتُ راضياً

عنه تماماً، بل واعتمدتُه اسماً رسمياً بعد ذلك.

جيلو.. اسمٌ سهلُ النُّطق.. رشيقٌ ومرِن.. لا يعني شيئاً ولا يُحيل على شيء. اسمٌ لا مضمون له. هذا أَسْلَم في عالمٍ غير مضمون. به يمكنك فتح حوارٍ سَلِسٍ وديمقراطيٍّ مع العالم. عندما أُسألُ عن أصلِ هذا الاسم أختلق الجنسية المناسبة حسب أصل السائل وفصله. مرّةً أكونُ إيطالياً أباً عن جدّ. بدليل المخرج جيلو بونتيكورفو الله يرحمه ويحسن إليه كما أحسن إليّ أكثر من مرّةٍ من حيث لا يحتسب. **(بلكنة إيطالية)** تشاو جيللو، تشاو تشاو.. ومرّةً يوناني من أمّ لبنانية. مرّةً إسباني من أصلٍ مغربي.. **(بلكنة إسبانية)** هُولاً جيلو.. وأحياناً مغربي من أصولٍ أندلسية. هذه نادراً ما أستخدمها رغم أنها تبدو الأكثر إقناعاً. آه..اكتشفتُ مؤخراً وجود مستوطَنة محاذيةٍ لبيت جالا قرب القدس اسمها «جيلو»، وأيضاً قريةً تدعى «وادي جيلو» في جنوب لبنان.. يعني أشياء تضفي على اسم جيلو طابعاً إشكالياً وتُمَكّنُني من اختلاق أصولٍ وقصصٍ ميلودراميةٍ كلما لزم الأمر. ليس كالجيلالي، اسمٌ عربي لا غبار عليه.. اسمٌ يتضمن هوية بكل تأزماتها.. اسمٌ معرّفٌ وواضحٌ كالفضيحة.

يخاطب الجمهور بحماس

لو أنجبتُ طفلاً وسيماً من ليزبيت..

ينتبه إلى أن لا أحد يعرفها، فيشرح

أوه.. ليزبيت. صديقتي الفلمنكية. سأدعوها إلى العشاء قريباً.. لو أنجَبَتْ لي طفلاً جميلاً ببشرةٍ بيضاءَ وشعرٍ ناعم سأطلق عليه اسماً متحضّراً لا ترقى إليه الشبهات.

ظلام

اللوحة الثالثة

إضاءةٌ شاحبةٌ على جيلو وسط الخشبة فيما تظهر صورة والده على شاشةٍ في العمق

مات والدي فجاء عمّي المعطي من بلجيكا لحضور مراسيم العزاء وتقسيم التركة: المزرعة التي تركها جدي. (ساخراً) ثلاث زيتوناتٍ ودارٌ خرِبةٌ ومعزتان وكلبٌ يُسمّونها مزرعة.

في المساء، سمعتُ أمي تقول لعمي

متقمّصا شخصية والدته

«والله يا سي المعطي أنا خائفة على الجيلالي. لا يبدو أنه سيحصل على الباكالوريا هذه السنة، وحتى لو أخذها ماذا سيصنع بها؟ شباب الحيّ بشهاداتٍ جامعيةٍ كبيرةٍ يَسْنُدون الحيطان طوال النهار كما لو يخْشَون عليها من السقوط. شُفْ له طريقةً تأخذه بها معك. هكذا أتفرّغ لتربية إخوته اليتامى. فالله يرحـــــم سي بوعــــلام، هو الوحيد الذي كان قادراً على ردعه».

يستعيد شخصيته مواصلاً بقلقٍ ظاهر

لم أفهم، هل أنا قواتٌ غازيةٌ ليتمّ ردعي**!؟** ثمّ ألستُ يتيماً أنا الآخر**!؟** كأنها تريد أن تتخلّص منّي**!؟** لكن موضوع السفر يُناسِبني.. (ترتسم على وجهه ملامح السعادة) بلجيكا. سأركب البابور معهم لأرحل إلى بلاد الشوكولاتة والجبنة والشقراوات.

يدور في الخشبة معرباً عن فرحه في حركاتٍ راقصةٍ على إيقاع أغنية الشاب رضا الطلياني «يا البابور يا مون أمور» والأضواء تتراقص من حوله. يقف وسط الخشبة ليواصل الحكي فيما تعود الإضاءة الشاحبة

في الصيف، جاء عمّي المعطي وطلب مني أن أجهّز حقيبتي. ضمّتني أمي بحنانٍ لأول مرة في حياتي. ودّعتني وهي تبكي. أما أنا فكنت مشغولاً بالتفكير في الحلاوة التي تنتظرني هناك. جلستُ جنب ابنَيْ عمي في المقعد الخلفيِّ للسيارة نتهارش لتنهرَنا زوجته

مقلّداً زعيقها

«اهدأوا أيها البغال».

بوصولنا إلى ميناء طنجة أمرني عمّي بالاختباء تحت المقعد الخلفي للسيارة

تَخْفِتُ الإضاءة تدريجياً عليه وهو يتكوّر فوق الخشبة

حذّرَني من إصدار أيّ حركةٍ تَشي بوجودي قبل اجتياز الحدود الإسبانية. (بصوت خافت) سمعتُه يتفاوض مع الجمركيِّ المغربي. لا شكّ أنه نَقَده بعض المال لتسريع الوتيرة.

حينما دخلوا الباخرة.. ركنوا السيارة.. وغادروا تباعاً.. بقيتُ وحدي مختبئاً لأشعر بالرّهبة لأول مرّةٍ في حياتي. عندما سمعت صوت انطلاق الباخرة صرخت كالمسعور: عمّي عمّي..

لا مُجيب. أحسستُ بتقطّع أنفاسي وتسارع دقّات قلبي. كدتُ أختنق.

ينهض ضارباً بكلتا يديه على زجاجٍ متخيّل

خرجتُ من مخبأي مرعوباً وأنا أصرخ: عمّي عمّي..

ينهار. صمت

عندما رجع عمّي ليستعيد سيارته نهرني: «استُرنا الله يفضحك».

فتح عمّي زجاج السيارة لأعود إلى مخبأي.

يتكوّر من جديد على الخشبة

جرّبتُ أول تماسٍ مع الموت.

ظلام

اللوحة الرابعة

صوت جيلو يخترق الظلام مترنّما بأغنية عليّة التونسية

أنا من أنا؟

يا تُرى

في الوجود؟

وما هُو شأني؟

وما موضعي؟

جيلو وسط الخشبة. تسلط عليه الإضاءة تدريجياً حتى تكتمل لينخرط في حالة بوح أمام الجمهور

«هل أنتَ لاجئ؟»

لا أعرفُ بِمَ أجيب على هذا السؤال؟

يلتفت كما لو أن السائل واقفٌ جنبه، مجيباً

ياريت.. (**يغنّي**) أنا من أنا؟

أنا مخلوقٌ غير شرعي. من المفروض أن أعتذر لك عن وجودي العبثيّ أمامك. وجودٌ يساوي العدم قانونياً،

بل هو خرْقٌ سافرٌ للقانون. بودّي لو كنتُ لاجئاً من فلسطين أو العراق أو الصومال. لو كنتُ ضحية حربٍ أهليّةٍ أو كارثةٍ بيئيّةٍ أو أيِّ مصيبةٍ تجعلكَ متعاطفاً معي الآن. أيّ شيء يُحوّلني إلى ملفٍّ جديرٍ بالدراسة. أنا للأسف لا قضية لي. **(ساخراً)** وبلدي يبدو آمناً وبدون مشاكل. أنا قطٌّ نَزِقٌ هاربٌ من دار العرس. أرأيتَ ما أَحْرَقني؟

يتذكّر، محوِّلاً نظره إلى الجمهور

أوقَفوني مرّة بالدانمرك. سافرتُ إليها ظنّا بأنّ العشب أكثر طراوةً في مروج الآخرين.. ربما خَشوا أن أزاحِم بقراتهم على الكلأ، فأخذوني إلى مركز الشرطة. جاهدتُ لأبدو مهزوماً كما يفضّلوننا عادةً وادّعيت أنّي هاربٌ من دكتاتور بغداد. حاولت استرجاع بعض السيناريوهات التي كان صديقي صامد الربيعي يبيعها للسوريين والأردنيين الذين يقدمون طلبات لجوء باعتبارهم عراقيين. صامد يدّعي أنه فنان مسرحي رغم أن ليس له من إنجاز سوى سيناريوهاته التي حوّل من خلالها حيوات الآخرين إلى ورشات مسرحية. كان يؤلف لهم قصصاً يصعب تكذيبها ثم يدرّبهم على اللهجة المناسبة. جاءني الشرطي الدنماركي بمترجمٍ عراقي: «الأخ من

وين؟»..

أجبته بلهجة عراقية مُتفاصِحَة: «شلونك عيني؟ آني من بغداد.. عراقي وشارد من صدّام».

حدجني بنظرة ظافرة ترجمتُها سريعا في خاطري: «على هامان يا فرعون؟».

لم يدم الحوار طويلاً، إذ سرعان ما ودّعني المترجم باستخفاف مَنْ كسبَ المعركة من أول جولة: «الله ويّاك عيني».

أجبتُه بمغربية فصيحة: «بالسلامة خويا، الله يعاون».

أعطوني أمراً بمغادرة التراب الدانمركي (**يدسّه في جيبه**) لأقفز في أوّل قطارٍ باتجاه بروكسل.

ينبعث عويل القطار ومعه صوت إلياس خضر يغنّي «مرّينا بيكم حَمَد».

ظلام

اللوحة الخامسة

يُضاء جزءٌ من الخشبة على طاولةٍ صغيرةٍ عليها غطاء أحمر، طبقان، شوكات وسكاكين. فتح جيلو قنينة نبيذٍ أحمر وجهّز كأسين ثمّ أحضر شمعداناً ثبّتَ وسطه شمعةً حمراء

ليزبيت أجمل ما مُنيتُ به في هذه البلاد. هذه البنت فيها شيءٌ غيرُ فلمنكيٍّ على الإطلاق.

آه ليزبيت.. حبّوبةٌ وخجولةٌ فوق ذلك. أوّل مرّةٍ أصادفُ صبيةً أوروبيةً وعذراء.

محاولاً إقناع الجمهور

آه، والله العظيم عذراء. أقسم بشرف المغاربة والفلمنكيين وجدتُها عذراء. بنتٌ ريفيةٌ من قريةٍ في اللامبورغ تدعى «بير».. يعني الإجاص. اسمٌ تفوح منه الطبيعة والطّهر. الإجاص فاكهةٌ فاضلة، ليس كتفاح الخطيئة. ثمّ لو لم تكن بنتاً فاضلةً لما اشتغلت مربيةَ أطفالِ برلمانيٍّ أوروبي من الحزب المسيحي المحافظ في هولندا. بنتٌ محافظةٌ

تتحدّث مع أطفاله بالهولندية دون أن تصرخ مثل الهولنديات: «اللعنة..verdomme»

من المهم أن يظل الأطفال على علاقة بلغتهم الأمّ. وليزبيت لديها بالإضافة إلى اللغة فائضٌ فطريٌّ من الأمومة. بينما أمّ الأطفال لا تترك حفل استقبالٍ إلاّ ورافقت زوجها إليه. لها ولعٌ بالشرب والسهر. وعندما ترجع ثمِلةً تكون صالحةً فقط للتكوّر مثل كيس بطاطا على السرير. **(ينظر إلى الساعة)** لكن لماذا تأخّرَت؟

صمت قصير ثم يواصل

ليزبيت.. الثابت الوحيد في وجودي المتقلّب. معها دخلت الحياة من بابها الواسع. تجلب لي الروايات وتأخذني إلى السينما.. علّمتني بعض الكلمات بالهولندية.. تنفع مع البوليس الفلمنكي كثيراً. يكفي أن ترطُنَ قليلاً بلغتهم ليتعاطفوا معك.

يخاطب شرطيا وهميا

«Ik ben Gillo. Ik ben een goed mens»

ليزبيت درّبتني أيضاً على الأنترنت، لأفهم أن للوجود معانٍ عابرةً للجغرافيا. مع الأنترنت أجدُني كائناً بكل ما تحمله الكلمة من معنى. فأنا موجودٌ ولديّ عنوانٌ، بل

عناوينَ وأسماءَ تتعدَّدُ بتعدُّدِ المخاطَبين..

كمن يرقن على كومبيوتر

«أنا أدردش، إذن أنا موجود..

آي لايك..

آي لايك يو.. آي لوف يو..

آي (شمس) يو.. آي (قلب) يو.. آي (قبلة) يو..».

مع ليزبيت، تُفتح كلّ الأبواب الموصدة. حتى أبواب الملاهي الليلية التي يقف أمامها حرّاسٌ غلاظٌ شدادٌ بمجرّد ما يرون سحنتك يُفهمونك من بعيدٍ بأن الملهى خاصٌّ بالمنخرطين. ليزبيت بطاقة انخراطي في الحياة بكامل أُنْسها. عندما أجلس رفقتها على سطح مقهى، لا أحد يجرؤ على سؤالي عن الهوية. فهويتي ليزبيت. أضعُ رجْلاً على رجْل وأتصرّف كنبيلٍ خارجٍ للتوِّ من فيلم كلاسيكي. ومثلما يقتضيه المشهد أهبها هديةً تليق ببهاء اللحظة.

يُضيِّع نظرته السارحة ليعود مرة أخرى إلى الساعة

لماذا تأخّرت هكذا؟

يغمغم ويحاول أن يشغل نفسه بترتيب المائدة

أمضيتُ نهاري في تحضير العشاء. ولأجلها جلبتُ أفخر

قنينة نبيذ بوردو في السوبر ماركت.

يُشرِق وجهُه ليستطرد

تحبُّ نبيذَ بوردو. لكنها سرعان ما تسكر. تحمرّ وجنتاها لتُسبغِ على وجهها الكثير من التوهّج. أنا أيضاً أحب نبيذ بوردو. وأحبّ ليزبيت. لكنّي أكره أن تتأخّر هكذا دون أن تكلّف نفسها إشعاري. لقد أهديتُها آيفون آخر موديل. فِيمَ تستخدمه إذا لم ترسل لي منه ولو رسالةً قصيرةً تُعلمني بأنها ستتأخر؟

يواصل ترتيب المائدة

قضيتُ اليوم كاملاً في هذا المطبخ الحقير. أسوَأُ بلاءٍ قد يُبتَلى به المرء هو أن يجد نفسه مُجبراً على اقتسام المطبخ مع هذا العالم الثالث.

ينظر إن كان هناك أحد من جيرانه قبل أن يعلّق لافتة صغيرة مكتوب عليها «الرجاء عدم الإزعاج»

سأمنعهم من تلويث المكان، ولْيَحمِل كلٌّ منهم طعامه الرديء إلى غرفته. على العموم، هم عندما يلحظون وجود ليزبيت يُخلون لي الجوّ. (يتابع مرور طيفٍ من الخلف) باستثناء هذا الفأر الصيني، يدخل ويخرج دون أن يُكلّف نفسه عناء إلقاء التحية. (**مخاطباً إياه**) سأحطّم

رأسك يوماً يا لاو زي. ماذا تظن نفسك؟ إمبراطور الصين؟؟؟

متوجّهاً إلى الجمهور

أعرف أنهم يحسدونني على ليزبيت. نظراتُهم تشي بذلك. تقرُّبهم منها بالابتسامات المتزلِّفة والمبالَغة في التهذيب. هذا القنفذ مراد ضبطتُه يوماً يُبالغ في ملاطفتها في المطبخ. الوغد.. بمجرّد ما يطلي شعره الأشعث ب»الجيل» يتوهّم أن سحرَه لا يُقاوَم. يطلي شعره بسخاءٍ فيبدو كما لو أنها أمطرت فوق رأسه دوناً عن العالمين. طبعا، فهو لا يدفع ثمنه. أنا الغبيُّ الذي يجلبُه له. النذل، لأنه يتوفّر على بطاقة إقامة سنوية يطوف لتمديدها كل معاهد البلد متسوّلاً تسجيلاً جديداً يظنّ أنه قطع الواد ونشفت رجلاه. لم أناقش معه الموضوع، لكنّي مارستُ عليه العقوبات الذكية. قطعتُ صنبور المساعدات حتى أصبح يتمسّح بي ككلب. امْبولو الكونغولي يبقى أقلّ لؤماً. قال لي مرّةً بأنني لستُ مناسباً لها وأنها تُجاريني فقط لأنّي أغمُرها بالهدايا.. أكبرتُ فيه صراحته. (**يضيفُ ناقماً**) الحقير!!

ينظر إلى ساعته منفعلاً. يراقب هاتفه المحمول. يبدو عليه التوتر. يتصل بليزبيت على الهاتف دون جدوى

لماذا لا تجيب؟ أو على الأقل تبعث رسالة. كأنّي نظّفتُ المطبخ فقط لهؤلاء الأجلاف. وهذا الأكل، ماذا سأفعل به؟ سأصابُ بجلطةٍ إذا ما انتهى في بطونهم.

يتهالك فوق الكرسي منكسراً

ليزبيت.. حقيقتي المخجلة. الحقيقة التي يعرفها الجميع إلاّي. والمشكلة أنني أحببتُها. بل ولأنّي أحببتُها، لم أعد أرى شمس الحقيقة الواضحة. الحبُّ والحقيقةُ أمران متناقضان. من أجل الحبّ، تلزمُك جرعةٌ كبيرةٌ من الوهم. يبدو أنني أعيش هذا الوهم وأستطيبُ مرارته.

ظلام

اللوحة السادسة

جيلو جالساً. يشرب كأس نبيذ وهو يحوّل نظره بين الساعة والمحمول. فجأة، يرنّ الهاتف. يجيبُ بلهفة

آلو ليزبيت.. حّبي.. أينك؟.. لماذا لم تخبريني بأنّك ستتأخرين؟ (**يصمت قليلاً.. تتغيّر ملامحه**) لن تأتي؟.. لماذا؟.. لا.. لا تمزحي معي يا ليزبيت. لقد قضيتُ طوال اليوم في هذا المطبخ القذر. نظفتُه وأعددتُ العَشاء.. ليزبيت، اسمعي.. دمي يغلي يا ليزبيت فلا تمزحي معي. (صمت) آلو.. ليزبيت.. آلو.. (**أقل حدّة**) لا لا.. لستُ سكراناً.. شربتُ فقط كأسي نبيذ.. (**يهدأ وتنفرج أساريره**).. آه، بوردو الذي تحبّين.. يالله يا ليزبيييت.. تعالي.. (**يحتدّ من جديد**) لكن أَلَم نتواعد على اللقاء الليلة؟! هل قصدُك تُجنّنيني يا ليزبيت؟ لو كان هذا قصدُك؟ «برافو»، سيكون لكِ ما تشائين.. (**مستنكراً**) هما يذهبان إلى العَشاء وأنتِ لا؟!.. يالله ما عليش أنتظرك. نَوِّمي الأطفال وتعالي. سأنتظرك..

سيعودان ثمِلَين ولن ينتبها لغيابك.. تُضحكينَ عليّ حثالة العالم الثالث وتريدينني أن أهدأ؟! اسمعي أيتها المخلوقة.. لا لا لا.. اسمعي اسمعي..

كيف؟!.. حسناً بسيطة.. لا تريدين لنا أن نلتقي بعد الآن؟!.. طيب، أنا موافق.. فقط عليكِ أن تُرجعي لي كلّ هداياي.. بما في ذلك الآيفون الذي تُكلّمني منه الآن.. (**باندهاش**) مسروقات؟! الآن فقط صارت مسروقات؟! لماذا قبلتِ بها إذن يا عزيزتي؟ وقبلاتك الممتنّة إثرَ كل هدية، بِمَ تفسرينها؟ أجيبي؟ لماذا تخرسين؟.. والله امْبولو معه حقّ، أنتِ مجرّد طمّاعة حقيرة.. (**صمت**) أوراق؟!! عن أيّ أوراق تتحدثين؟.. وتعرفين الاستراتيجيـــة؟!! (**هازئـــاً**) والله العظيم.. صرتِ خبيرة استراتيجية أيتها القروية الجاهلة.. هل طلبتُ يدكِ يوماً للزواج؟ (**محتداً**) لا لا، هل طلبتُ ذلك يوماً؟.. أجيبي؟.. لماذا خرستِ؟ لو كنتُ أريد الأوراق لتزوّجتُ جورجيت صاحبة البار. وجدتُ لديها العمل الكريم والحضن الدافئ. كانت تتوسّل إليّ لكي أتزوّجها. لو كنتُ انتهازيا مثلك وقبلت، لكنتُ بالإضافة إلى الأوراق، أصول وأجول في البار مثل ملك..

ماذا؟! عجوز؟! عجوزٌ وأجمل منك.. ماذا تظنّين نفسك؟ ستّ الحسن؟ انظري إلى وجهك في المرآة أيتها السخيفة. أنا رأفةً بكِ أخرجُ معكِ. أخرج معكِ لأجعلك تشعرين بأنوثتك. **(مستنكراً)** عربيٌّ قذر؟! أنا؟! الله يسامحك.. عربي أوكي. أقبل بها حتى ولو جاءت على شكل شتيمةٍ من غبيةٍ مثلك، لكن قذر! لا.. خصوصا منكِ أيتها الإجاصة المتعفنة.. هل تعرفين أنني عندما أديرُ لكِ ظهري مدّعيا أنني اَلِفْتُ النوم على جانبي الأيمن مقابل الحائط، كنتُ فقط أتفادى رائحة فمك الكريهة؟.. لا تسمعين؟.. طبعاً، الحقيقةُ عصيّة على الالتقاط. لو كنتُ أتغزّل بك الآن لوصلك صوتي واضحاً.. المهم أنا أسمعكِ جيداً فماذا لديك؟.. **(مستنكراً)** أنا؟! تعرفين أنني لستُ مديناً لكِ بشيء. أنتِ مدينةٌ لي بكلّ شيء. ألبستُك الماركات التي كنتِ تكتفين بالبحلقة إليها في المجلات ببلاهة. علّمتُك كيف تتزيّنين وتتعطّرين. حوّلتُك إلى أنثى. تحسّسي فقط ملابسك الداخلية، وتذكّري الكِلُوتات الرديئة التي كنتِ ترتدينها عندما عرفتُك أوّل مرّة. تذكري أيتها الناكرة للجميل.. ماذا؟.. أنساكِ؟ سأنْساكِ بأسرع مما تتوقّعين.. **(يحتدّ)** لكن قبل ذلك، ستُعيدين إليّ كلّ هداياي. بما في ذلك

الكلوتات السترينغ التي لا تناسب مؤخرتك الهائجة.
فأنا لن أقبل لقرويةٍ تافهةٍ من اللامبورغ أن تستغفلني..
آلو.. آلو.. **(يصرخ بانفعال)** العاهرة.

ظلام

اللوحة السابعة

يُضاء وجه جيلو مقتعداً كرسي استنطاق وهو يجيب على أسئلة شرطي وهمي

اسمي؟

جيلو.. (**يستدرك**) أعرف ، يا سيدي مثل جيلو مثل الجيلالي.. أوووف.. المهم أنا هو.

تاريخ ومكان الولادة؟

15 مارس 1975.. بالمغرب.. طبعاً..

العنوان؟

لم يتغيّر.. (**يُجيب ساخراً وهو ينظر إلى أسفل حذائه الرياضي**) نايك 42.

دمي خفيف؟

تسأل إن كانت خفةُ الدم لديّ وراثيةً أم مكتسبة؟

لا والله مكتسبة (**محاولاً إخفاء ابتسامةٍ شامتة**)

مثل هذه؟.. مثل ماذا؟

طاااخ.. جيلو يتلقى صفعةً من الشرطي الوهمي

تصفعني؟! **(مهتاجاً غيرَ مُصدِّق)** كيف؟! تصفعني؟!

هل تعرف أنك تخرق القانون؟..

أعرف أن لا شيء لديَّ قانونيٌّ لكن صفعتك بدورها غير قانونية..

ماذا؟! سأتلقّى أضعافها بالمركز قبل أن أُرَحّل عن بلدي؟

تقول إن بوليسنا الوطني متشوّقٌ لتعميق النقاش القانوني معي هناك؟!

هم أكثر خبرةً منكم؟! تعتقد ذلك؟!

لا والله، بفضل همّة أمثالك صرتم تضاهونهم..

أوكي، لا تحتدّ. لماذا أسرق؟

لا أعرف.. يدي تسبقني..

مخاطباً الجمهور

عندما تشعر بأنك لا شيء، تصير قادراً على فعل أيّ شيء. فقط حينما أسرق، أشعر بأنّي موجود. عندما يدقّ قلبي بشدّة، أشعر بنشوةِ مَن يبتلع قرصاً ضدّ الملل.

أنتم أيضاً تحتاجون إلينا لمكافحة الضجر. من دوننا ستقتلكم الرتابة. نحن نوفّر لطبق الحياة الفاتر عندكم

البهار اللازم.. أقصد الفلفل الضروريّ.

يسقط من على الكرسي مخاطباً الشرطي الوهمي بنبرةٍ منكسرة

ثمّ، ألم تتكبّدوا مشقة القدوم لاستعمارنا؟ أسلافي لفرط غبائهم طردوكم. كان مجرّد سوءِ فهمٍ تاريخي. وهاأنذا الآن جئتُ معتذراً. جئتُكم صاغراً من تلقاء ذلي، فاستعمِروني. أنا راضٍ بذلك. ادمجوني فيكم. غيّروا اسمي. لم يُعْجِبكم جيلو، خلّوه جاك أو جان ماري. يا سيدي سمّوني ماري لا مشكل لديّ. فقط حوّلوني إلى إنسانٍ يعيش في الضوء عوض هذه العتمة. أنا إنسان مثلكم ولو أنني وُلِدت بالخطأ في المكان الخطأ. أوقفوا هذه النظرة المرتابة التي تُلاحقني.. (**مستغرباً**) ما زلتُ لا أفهم كيف يتصرّف معك البعض ككلب ليستكثر عليك بعدها أن تنبح أو تعَضّ؟! (**بتحدٍّ**) أناً لصّ.. أعترف. لكنني لستُ مجرماً. لا تفهمون الفرق؟.. ليس مُهمّاً. أنا فقط، أُطلِقُ صفير إنذارٍ للفتِ الانتباه لوجودي. أيضاً أنا أسرق بمبادئ. أسرقُ العولمَةَ شخصياً ولا أقتحم إلاّ المدن التجارية العابرة للجيوب والقارات. تلك التي تتباهى بأنظمة المراقبة المتطوّرة. وما أسرقه أوزّعه على مراد وامبولو وحتى لاو زي. أساهم في إعادة توزيع الإنتاج.. اعتَبِروني مناضلاً.. مناضلٌ طوباوي يُطالب

بمجانية العيش في هذا السجن المجاني الذي تسمونه حياةً.

تتلاشى الإضاءة تدريجياً قبل أن يعمّ الظلام

اللوحة الثامنة

جيلو في غرفة بمركز الاعتقال يعطي ظهره للجمهور. ينبعث صوت العربي باطما في موّال لناس الغيوان (واه يا ذيك الشمس الطالعة/ إذا شفتِ مَامّا حَنَّة/ قول لها راه وليدك دموعه ضَارْعَهْ/ واه يا ذيك القافلة الغادية/ إذا شفتِ مَامّا حَنَّة/ قول ليها راه وليدك ما قبلته زاوية)

أمي.. لماذا كلّما اتصلتُ بكِ سألْتِني عن الأوراق؟ وبعدها عن الأوراق الأخرى التي تستلمينها من ال «ويسترن يونيون» من حين لآخر؟ كلّ مرة عليَّ أن أبحث عن شخص قانونيٍّ يمكنُه إجراء التحويل. **(بضجر)** اتركيني ياً أمي. لستُ طاحونة نقود. **(بمرارة)** بسببكِ بقيتُ مشرّداً في هذي البلاد. بسبب الحسرة في صوتك أخشى العودة. بسبب التشفّي الذي تُبديه جاراتكِ الثرثارات.

يستدير نحو الجمهور مواصلاً بحرقة

ماذا فعلتُ لكِ يا أمي لتَتَخَفّفي منّي؟ هل كنتُ عبئاً عليك إلى هذا الحدّ؟ حتّى يتيميك اللذين تذرّعتِ

بالتفرّغ لتربيتهما طلعت الأختُ أجْحَشُ من أخيها. أم أنك كنتِ تريدين أن يخلُوَ لكِ الجو لتفرحي بالحياة بعد أبي؟

لم أصدِّق الأخبار التي كانت تُشيعها زوجة عمي عنكِ. هذه البومة سرعان ما حوّلتكِ غياباً إلى عاهرةٍ وحوّلتني حضورياً إلى عبدٍ رقيق. بالإضافة إلى التسوّق، أساعدها في أعباء البيت. ولّما قرّر عمّي تحرير رقبتي من قبضتها حوّلني إلى بغلٍ في ورشة البناء. يُثني على صلابتي أمام أولاده الذين يسخرون من غفلتي. المحتال، يُقاسمني التعب بالقسطاس دون أن أظفر منه بثمن ذلك. يختار لي أشدّ الأعمال قذارةً ويضحك عليّ آخر النهار بفرنكاتٍ معدودة.

يقلّد عمّه

«العمل في الأسود يُدِرُّ الفرنك الأبيض الذي سيُخَوّلُ لك تدبير زواجٍ أبيضَ ينفعك في اليوم الأسود».

لم يعرف أن اليومَ الأسود كان يومَ رافقتُه إلى هذه البلاد. يريد أن يعوّض بي إخفاقه في تربية جحشيه. ما إن اشتدّ عودُهما حتى حوّلا بيته إلى مرقد. لا يراهما إلاّ في الليل كخفّاشين. الوغدان، بمجرّد وصولنا إلى بروكسل تنكّرا لي تماماً. نبذاني ككلبٍ أجرب. أنا الذي طالما كنتُ لهم

دليلاً ولساناً في الوطن، صارا يتنافسان في السخرية من لُكْنَتِي أمام أشباهٍ لهم في السُّخْفِ والتفاهة.

عندما صفقتُ بابهم وراء ظهري تذوّقتُ طعم الحريّة لأول مرة. صُلْتُ. جُلْتُ. صِعْتُ. ضِعتُ. تشرّدْتُ. تصعلكتُ. جرّبتُ سخافة أن تصدّك دميمةٌ لا تساوي بصلةً في سوق الحريم، وتفاهة أن تُغرَم بك عجوزٌ في عمر جدّتك، ومذلة أن يشتهيك رجلٌ في عمر تمساح. كابدتُ قسوة أن يَحنُو عليك أحدٌ كما لو أنّك قاصرٌ أو أقلُّ من إنسان. كابرتُ. حاذرْتُ. سرقتُ. بذلتُ. هربتُ. وقعتُ.. عشتُ حياتي المؤقتةَ كحربٍ مفتوحة في انتظار لحظة الحسم.

ظلام

اللوحة الأخيرة

جيلو ينتفض عندما تبدأ الطائرة في الإقلاع. يضع الشرطيان الوهميان مرفقيهما بقوة على ظهره فيما رأسه مائل إلى الأمام وأنفاسه متقطعة. يحشرج

دعوني.. أنا لم أقتل لومومبا.. ارتكبتُ حماقات عديدة. أعترف. لكنني لستُ وغداً.. صدّقوني.. أنا أجبَنُ من أن أركب طائرةً.. يا إلهي.. أنا أجبَنُ من أن أركب طائرةً وأجبَنُ من أن أموت.

استعاد جيلو وضعه الطبيعي بما يفيد بأن الشرطيين أزاحا مرفقيهما عن ظهره. يحاول جاهداً التقاط أنفاسه مواصلاً ترديد دعاء السفر بصوت متقطّع

سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُون..

مخاطباً الجمهور

لحظة الحسم هي هذه.. الشرطيان اللذان يُرافقانِي في

رحلة اللاعودة يتحدثان في تفاهاتٍ يوميةٍ نكايةً بلحظتي المصيرية.. (**بغضب**) كان عليّ أنْ أتحمل فظاظة هذين العجلين وهما يسحبانِني إلى المطار.. الجلفان لم يكتفيا بذلك، بل يريدان أن يضربا لي موعداً مبكّراً مع الأبدية حيثُ الحياة مجرّد ذكرى قصيرةٍ والموتُ طويييل.

يتلفّتُ يمينا وشمالا وهو يضرب الشرطيين بمرفقيه ويصرخ

كلاب.. كلاب.. كلاب..

يضع الشرطيان مخدّةً على وجهه في محاولةٍ لتهدئته. يحاول صدّ المخدة* عن وجهه. ينتفض. يحشرج

اللعنة.. إنّي أختنق.. أزيحوا عنّي هذه الوسادة العَفِنة.. أشمّ رائحة الموت يا أبناء الـ... أغيثوني.. أختنق.. أتوسل إليكم.. أنا أمـوت.. أمووت.. أموووت..

ينتفض مثل طير مذبوح قبل أن يغمض عينيه ويخرّ مغشياً عليه. موسيقى جنائزيةٌ تشق الصمت. تبدأ الإضاءة في التلاشي ليسود الظلام.

* طريقة متداولة «لتهدئة» المهاجرين غير الشرعيين أثناء ترحيلهم سبق وأودت بحياة الإفريقية سميرة أدامو في أواخر التسعينات.